

## مقدمة

منذ وجد الإنسان على سطح الأرض في صورته الواعية ، وحركته الدائمة لا تتوقف باتجاه الأمام بغض النظر عما اعتراضها من تعثر من انحراف في هذه الفترة أو تلك وفي ذلك القطاع أو غيره ، وللحركة - كل الحركة - ما لم تقع في نطاق قانون معين تحاكم وتقيم من خلاله ، فهي شيء آخر ولو كان ظاهرها يضعها في صورة الحركة .

ولحظات الانحراف في تاريخ الإنسان رغم امتداد بعض منها إلى نصف قرن مثلاً إلا أنها في الواقع ما هي إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن في تاريخ البشرية ، لحظات الانحراف هذه هي الفترة التي حكم فيها الطغاة ..

فمن هو الطاغى ، وما تعريف الطغيان ، والواقع أن وجهات النظر تتعارض وتتناقض وخطورة الموضوع تكمن في :

• أولاً : قد يحدث تطور ما في ظل حكم الطاغية ، وهنا يصعب القول بأن الطغيان تيار عكسي مضاد لحركة التاريخ .

• ثانياً : قد يكون الطاغية رغم طغيانه واستخدام الكثير من أساليب الانتهازية في الحكم محبوباً من شعبه ، على الأقل الفئات

التي استفادت خلال تواجده في السلطة وهنا يصعب القول بأن الطاغية مكرهه من شعبه ملعون من الإنسانية ولا أحد يترحم على أيامه .

• ثالثاً : قد يكون الطاغية وحكمه ضرورة تاريخية تفرضها ظروف المجتمع وبالذات في دول العالم الثالث ، حيث الأمية تسيطر وميراث الاستعمار ، وعدم تواجد مؤسسات للحكم وظهور فكرة البطل والزعيم في هذه المجتمعات تصبح الأمل الذي تبحث عنه الجماهير ويتمسك به الرأي العام في هذه البلدان ، ويكون هنا الحاكم حاكماً مطلقاً مستنير الاتجاه ولكنه وفقاً للمعايير التقليدية لتعريف الطاغية هو بحق طاغية .

• رابعاً : قد يأتي الطاغية بعد فترة من العيب والفضى والاستهتار بحقوق الشعب من جانب مؤسسات صورية للحكم .

ويظل السؤال الحائر ما هي أبعاد تحديد فكرة ومفهوم الطغيان ؟

ريهنا أن نفهم من البداية بعض البديهيات :

أن الإصرار الجماهيري الواعي على الانتصار للفكر الديمقراطي ، هو صمام الأمن الوحيد ضد الجنوح نحو الديكتاتورية ، فالإرادة الحرة لشعب من الشعوب هي الضمان لتحقيق إنسانية الإنسان بتجسيد حريته السياسية والاجتماعية وشرعية البقاء في ظل حرية

الكلمة ، ليس ترفاً يسعى إليه المثقفون وحدهم ، وذلك لأن الإرادة الجماهيرية الأصيلة بعمق التاريخ ، واتساعه ما هي إلا معركة المواطن العادي لتحقيق التقدم والتطور ، والإسهام فى بناء الحضارة من خلال توفير لقمة العيش له ، وحمايته من كل القوانين الجائرة وتمتعه بحقوقه كإنسان له حق الاختيار فى الحياة التى يحياها .

وليس يخاف على أحد أن شعوب العالم ذات المستوى الاقتصادى الواحد تكاد تتشابه فى بعض الخصائص والسمات ، ولكن من المؤكد أن لكل شعب سيكولوجيته وشخصيته من خلال الإطار التاريخى الذى مر به .

وتزواج الحضارات ومزج الثقافات ، قد يغير من بعض الصفات لشعب من الشعوب ، ولكن يظل القوام الأساسى لتحليل شخصية هذه الأمة نابعاً من تراثها وتجربتها الحضارية .

ومن هنا فإن الشعوب قد تختلف فى تحديد من هو الحاكم الطاغية ، وقد يكون الطغيان معنى الحكم الفردى وقد يكون التمسك بالسلطة مهما كانت الضحايا وقد يكون معنى الطغيان الحكم بدون مؤسسات وبدون برلمان أو بلا دستور لكن من المؤكد أن الطاغية هو الذى يكتم الأفواه ويصادر الحريات ، وتستغل السلطة لصالحه .

الطاغية .. وحرركة التاريخ :

إن الطاغية فى حركة التاريخ عمل سلبى يجر الشعوب إلى الورا ويقف ضد التقدم الإنسانى ، وينشر الأوبئة الفكرية والانحرافات ويخلق التزيف ويحث على النفاق .

ولكى يتفق كلامنا مع المنهج العلمى لىمكننا معالجة الموقف بأمانة تاريخية لايد من تحديد الإطار الذى يمكن فى ضوءه تعريف الطاغية .

١ - بعد تقويم فترة حكمه يمكن الحكم على ممارساته وسياسه بأنها لم تؤد إلى تطور المجتمع تطورًا حقيقياً ، وإلى إعلاء شأن الإنسان وتحليه بمجموعة من القيم الأخلاقية ..

٢ - إلى أى مدى ارتفع مستوى المعيشة خلال فترة تواجده فى السلطة .

٣ - إلى أى مدى تمتعت الصحافة بحريتها ومارست المؤسسات الديمقراطية دورها بأمانة ولصالح الشعب الذى تمثله .

٤ - وأخيراً ما هو التغيير الذى حدث فى عهده بالنسبة لقيمة الإنسان الاجتماعية ؟ ... هل تعرض لمصادرة حريته وسجن أفكاره ؟ ، ما هى صورة التعذيب الذى تعرض له ؟ ، وكم من الظلم رقع فى عهده ؟ .

وفى ضوء هذا المنهج يمكن أن نطلق على ستالين طاغية ، وعلى هتلر طاغية ، وعلى موسوليني طاغية ، اجتمع لثلاثتهم صفتان هما لعنة شعوبهم التى تلحقهم فى مآتهم بصوت عال كما لحقتهم بصوت منخفض فى حياتهم .

وفى ضوء هذا المنهج أيضًا يمكن القول بأن « فرانكو » كان طاغية من نوع خاص وعيدى أمين طاغية أقل شأنًا وروبسيير زعيم الثورة الفرنسية فى بعض مراحلها يمثل صورة الطغيان المتعطش لسفك الدماء ، إن كلمة الطاغية مرادفة لكلمة الديكتاتور ، وكل طاغية يستند إلى فلسفة وعقيدة تسانده وفى ضوءها يرسم خطواته ويحدد استراتيجيته .

#### غاية الطاغية :

إن شرف الكلمة ومسئوليتها بالنسبة للملتزم بها تدفعنى إلى التأكيد - الآن ودائمًا - أن أى طرح لموضوعات طغاة التاريخ لا بد وأن يقع بين ثلاثة حدود :

- الأول : ما هى الغاية التى كان يسعى إليها الطاغية ؟
- الثانى : ما هو الدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية ؟
- الثالث : ما هى العوامل التى تتحقق بها هذه الغاية ؟

والملاحظ أن الغاية التي كان يسعى لها - ولازال - كل طغاة التاريخ هو بقاؤهم الدائم في الحكم واحتفاظهم بالسلطة مدى الحياة ، لا يتركون فرصة لغيرهم ويحاربون كل من يشعرون بأنهم يطمعون للوصول إلى عروشهم ، والدافع الذي تصدر عنه هذه الغاية اعتقاد الطغاة أنهم من طينة غير طينة البشر ، وأن عليهم رسالة يجب أن يؤدوها وأنهم ملهمون من الله ، ويحملون عبء مسئولية القيادة ، وفي ظل هذا الجنون من العظمة يظنون أنفسهم العبقريّة الوحيدة ويعتقدون أن ذكاءهم فوق كل ذكاء وغيرهم هم الأغبياء ، من خلال الكثير من العقد النفسية التي تسيطر على اللاوعي داخلهم ، تتضخم ذاتهم ويصبح هذا الدافع هو الذي في ضوئه يعلنون أن مهامهم لم تنته بعد وأن عليهم إنجازات لأبد من إتمامها دون إدراك أن هذه الإنجازات فقدت محتواها .

وبيت في هذه المقدمة ثلاث مسائل هي أقرب إلى الأسئلة من أي شيء آخر : هل علاقة السلطة بالمواطن هي التي تحدد أبعاد دائرة الطغيان والإجابة - نعم ... ذلك أن وجود الإنسان - خليفة الله في الأرض - هو الذي يعطي الوجود معناه ومن هنا كان تقويم أي نظام حكم بما يعود على هذا الإنسان من تطور وتقدم .  
والثاني : هل الأحكام التي سوف تصدرها قاطعة ، والواقع أن المؤرخ كالقاضي يحكم وفقاً لما قدم له من مستندات ولا يمكن

لقاض أن يخالف ويحكم من خلال أحاسيسه أو عواطفه ، وهنا يكون الاعتماد على الوثائق مهمة ضرورية .

أما الثالث فهو : لماذا تثار مثل هذه الموضوعات على صفحات الصحف وما الذى يعود علينا من طرح السيرة الذاتية لشخص ويوضع فى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ ولعل الإجابة على ذلك ليس فقط فيما يمكن أن يستفاد من أخطاء الماضى ، ولكن لأن الحاضر بكل ما يحتويه ما هو إلا موجات متدافعة من بحر الماضى ، وكذلك ليس المستقبل بكل ما سوف يحتويه سوى موجات متداخلة من بحر الحاضر .. وهكذا كان التاريخ وسيظل حلقات متداخلة تصنع سلسلة واحدة ، فإذا سقطت واحدة من هذه الحلقات ضاعت حبات السلسلة وانفرد عقدها .. وبضياع السلسلة يضيع التاريخ .

جرس إنذار :

إن دراسة طغاة التاريخ ليست إساءة لشعوب رضخت - رغم أنها مكمة أفواها لنزعات الطاغية - ولكنها عبرة تعظ منها الأجيال وجرم إنذار للشعوب وصرخة تتعالى من كافة أنحاء المعمورة أن انتبهوا ، قبل أن يغمرنا الطوفان .

وبقى أخيراً أن أقول : إننى لا أريد أن تتحول ساحة هذه المقدمة الصغيرة إلى سرداق للعزاء للشعوب التى اکتوت بنيران الديكتاتورية

من جراء حكم الطغاة ، كما أنها ليست محاكمة تاريخية لهم لبش  
الماضى وإثارة المرارة ولكنها فرصة لطرد الغربة من حدائق الأحزان ،  
وذكرى نرجو ألا تنطوى أو تذوب من مخيلة الجماهير حتى لا تتعثر  
مرة أخرى ، وحتى لا تساهم فى صناعة الأصنام لتعيدها ثم تقضى  
بقية عمرها تشكو آلامها من عذاب الضمير من تلك الآلهة ، التى  
كانت هى السبب فى تواجدها ، ولم نستطع أن نقضى عليها إلا بعد  
أن دفعت الثمن غالبا .

أ . د . محمود متولى